مشروع زواج

« نقرت على الباب بأنامل كأنها صنعت من عاج » اتسعت عينا المدير – أيوب – انتصب واقفاً، ابتسمت ملامحه. أشار بيده وقال لها تفضلي.. سلمت وناولته النماذج.

– تفضلي اجلسي.

– شكراً، أريد توقيعك على النماذج، ثم علي أن أتابع المعاملة لعلها تنتهي في يوم أو يومين.

– مارأيك أن نتولى هذه المهمة عنك، وسيكون الجواز في يدك خلال ساعة.

– إذن تفضلي، اجلسي.

استدعى المدير المراسل وأعطاه المعاملة وطلب منه أن يجتهد في إنجازها... « هذه هي مطلوبي » لقد انتظرتها لأربعين عاماً... » عينان زرقاوان كأنهما خلاصة من ماء البحر، أو كأنهما عينا حبيبة ذي الرمة، الشاعر الأموي الذي قال فيهما:

وعينانِ – قال اللّه: كونا فكانتا –

فعولانِ بالألبابِ ما تفعل الخمرُ

obeikandl.com

وأسنان مفلجة كأنما مرت عليه إبرة طبيب فنان، لا.. ليس هذا تفليجاً طبيعياً، إنما هو صنعة طبيب ماهر، وشعر أشقر كأنما فتل من سبائك الذهب الخالص.. إنه ليخيل للناظر أنها شمعة مضاءة.. قال لها وهو يبتسم:

– شاياً أم قهوة؟

– افترّ ثغرها عن ابتسامة عريضة فبدت أسنانها المفلجة:

– شاياً ثم قهوة.

قهقة أيوب ليداري ارتباكه، ثم استدعى الآذن وطلب من أن يحضر كأسين من الشاي أما جوابها فقد أشعره أنها جريئة، فقال في نفسه: (هذا يسهل المهمة عليّ).

– يا ست سعاد، هل تسمحين لي بسؤال؟.

– تفضل.

– رسلان اسم الوالد؟.

– نعم..

– اذن.. فأنت آنسة!

– بل سيدة!

– كيف؟ لماذا لم تكتبي في النموذج اسم الزوج؟

– تزوجت وطلقت!

– لماذا أقصد أنك بليت برجل لم يقدرك حق قدرك.

– بل برجلين.

ابتسم، ولكنه لم يفهم ما تقصده، فنظر إليها متسائلاً...

– تزوجت من رجل صاحب تجارة كبيرة، ولكنه لم يفهمني، فوقع الطلاق بعد سنة.. ثم قلت: أغير النوعية.. فتزوجت من شاعر، ولكني وجدت أن التفاهم معه كان مستحيلاً، فوقع الطلاق بعد ستة أشهر.

– كنت أعتقد أن الذي يحظى بهذه الجوهرة لا يفرط فيها.

– الغريب أنني لم أصادف أحداً يفهمني، ذنبي أن اللّه أعطاني عقلاً حكيماً، والناس، ومنهم الأزواج.. يريدون أن يفرضوا عليّ آراء فاسدة، وأنواعاً من السلوك شاذة.

قال وهو يضم أصابع يده اليمنى ثم يفتحها:

– ما رأيك برجل يحاول أن يفهمك!

نظرت إليه ثم أغضت وطيف ابتسامة ينتشر على ملامحها شجعه ذلك منها فأردف:

– أريد أن نلتقي لقاءً مطولاً نحاول أن نتفاهم فيه، وأرجو أن ينتهي ذلك إلى أن «يُؤْدَمَ» بيننا، وأتبع ذلك بنظرة متفحصة.

نظرت هي إليه وقد زوت ما بين عينها وقالت:

– وهل تختلف عن غيرك، كلكم يدعي، ولكن كلكم يتمسك برأيه لا حَظَ لأول مرة، أن خشونة صوتها لا تتناسب مع جمالها ثم قال:

– على كل حال... جربي هذه المرة.

اتفقا أن يلتقيا يوم الاثنين الساعة الرابعة، أمام باب مكتبة الجامعة.. ثم أخذت الجواز وودعت..

الساعة الرابعة إلا ربعاً كان في انتظارها «فما يليق أن تسبقني، يجب أن أكون في الاستقبال».. لم تصل هي إلا الرابعة والنصف.. سلمت ثم تساءلت:

– متى وصلت؟

– الرابعة إلا ربعاً..

قالت ساخرة

– يبدو أنك تحترم الوقت.

جفل من تعليقها، ولكنه رأى أن يوضح نفسه:

– لقد أردت أن أكون في الاستقبال، فما يليق أن تسبقيني..

لم تتكلم وإنما هزت رأسها، دلالة عدم الاقتناع.. سارا جنباً إلى جنب، نحو مقعد في حديقة الجامعة، لاحظ أنها أطول منه قليلاً.. «لا يهم، سأعرض عليها أن تلبس حذاء قصير الكعب، على كل حال الفرق ليس كبيراً، هي أطول وأنا أعرض..». نظرت إليه بعد أن جلسا، منتظرة منه أن يبدأ، ولّما طال الصمت قالت:

هاتِ ما عندك.

قال وهو يحدق في عينيها الزوقاوين وأهدابها الطويلة:

– نحن إن شاء اللّه، ننطلق في حياتنا من الإسلام، القرآن والسنة النبوية والاجتهادات المقبولة هي الحَكَمُ فيما نأتي وما ندع..

obeikandl.com

– الإسلام ليس لك وحدك، وإنما هو دين عامة الناس.

– ماذا تعني؟

– هل تعتقد أني ملحدة لتذكرني بالإسلام؟

– لا.. أريد أن نتفق على – مسلمات – ثم نبني عليها..

– أأنت شاعر؟

– لا، لكن لماذا هذه الملاحظة..

– زوجي الثاني الشاعر.. كان يتفلسف مثلك!

امتعض من تعليقها، ولكنه رأى من الحكمة ألا يرد عليها حتى لا تمتلئ الطريق بالأشواك، قبل المرور بها.. صمت لحظة، متجاهلاً تعليقها ثم قال، وقد غابت عن وجهه الابتسامة:

– بما أننا ننطلق من الإسلام فلا بد من مراعاة الحشمة في اللباس..

– اللباس.. شيء راجع إلى الذوق لا إلى الدين..

– لكن الإسلام لا يرضى للمرأة أن تخرج غير محتشمة...

– ماذا تعني بالحشمة؟

– أن ينفي عن لباس المرأة المسلمة ثلاث صفات، ثم يكون بعد ذلك ما يكون.

– ألا يشف. ولا يصف ولا يكشف..

أحست برغبة في السخرية فقالت:

– أما تكفيك قيود اللباس التي تفرضها على المرأة؟

– ماذا تعنين؟

– لقد أضفت قيوداً لفظية إلى جانب قيود اللباس.

– وما هي؟

– لا حظت أنك أوردت ثلاث كلمات في آخر كل كلمة «فاء» فلم تكتف بالرغبة في استعباد المرأة، بل أنك ترغب في استعباد الألفاظ، عن طريق السجع..

استاء من سخريتها وهو جاد غاية الجد.. حَدّق فيها وهو يقول:

– وهل مطالب الشرع استعباد؟

قالت وقد اكفهر وجهها فبدا كالغيمة المنذرة بالمطر يلمع من خلالها البرق:

– هذه مطالبكم أيها الرجال، وليست مطالب الشرع.

– وكيف تفسرين قوله تعالى: «يا أَيُّها النَبِيُّ قُل لأَزوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيّهِنَ مِن جَلابِيبِهِنَ﴾؟.

– وهل تعد نَفسَكَ مؤمناً؟

– ولماذا لا أعد نفسي مؤمناً..؟

– المؤمن لا يجالس النساء في مكتبه ويكلف المراسلين العاملين في دائرته بإنجاز ما كان يجب أن يقمن هن بإنجازه!

تقصدين أنني استبقيتك عندي، وكلفت المراسل بإنجاز معاملتك؟

– وأنا واحدة من عشرات، تفعل لهن ذلك!؟

– أبداً.. أنا لا أفعل ذلك مع كل مراجعة، ولكنني أعجبت بك ومنيت نفسي أن أتزوج منك إن كنت غير مرتبطة، وما كان بإمكاني

أن أعرف ذلك بغير استقبالك عندي، لقد كان هدفي شريفاً.

قالت وقد بدا الغضب عل وجهها:

– أنتم الرجال لا تَصّدُقون.. وأنا مقتنعة بهذا اللباس العصري الذي ألبس..

وتألم لهذا الجواب.. ولم يجد خيراً من الصمت.. أشاحت بوجهها وأخذت تنظر إلى الجهة الأخرى.. نظر هو بين قدميه ثم رفع رأسه فرأى فتاة تلبس بنطالا ضيقاً تتكسر في مشيتها.. تذكر أنه في الأربعين، وأن – نجاة – زميلته أيام الدراسة الجامعية فضلت عليه رجل أعمال يمتلك سيارة فارهة وقصراً فخماً ومتجراً يربح كل شهر حوالي أربعة آلاف دينا.. قرر أن يكف عن الحوار في هذا الموضوع، وأن يحاورها في موضوع آخر.. لعلها تتقبل الحوار فيه، وهو موضوع رئيسي لا تتجاوز عنه أبداً..

انتظر التفاته منها نحوه، ابتسم في وجهها، وأشار عليها أن يذهبا إلى مقصف الجامعة ليشربا شيئاً يبرد أعصابهما الحارة.. فكرت أن تعتذر ولكنها عدلت عن ذلك، وظلت صامته.. نهض وانتظرها حتى نهضت.. في المقصف.. طلب فنجاني قهوة، حَسَتْ حَسْوة دون أن تتكلم، وخطر ببالها الماضي.. لعنت في سرها زوجها الأول الذي كان ينعتها بأنها عنيدة، لا ترى صواباً إلا في الأفكار التي تنبت في دماغها.. (كلاب، حمقى، ومع ذلك يحكمون على الناس، يحكمون على من يزن عقلها الجبال

الرواسي، ألا . . . أين الرجل الذي يقــدر هذا العــقل المملوء حكمة! . .)

قال أيوب :

– لننتقل يا مدام سعاد إلى موضوع آخر، فهذا الموضوع إنساني أخلاقي عاطفي . .

– نظرت إليه مستفرة بعينيها دون أن تكلم .

قال وهو يصوب بصره إلى جدار المقصف :

– أمي . .

ولم تقل شيئاً، فأكمل . .

– أمي في الثمانين من عمرها، وهي سيدة وديعة، لا تتدخل في شؤوننا، فإذا كُتِبَ بيننا كانت في رعايتنا . .

نظرت إليه مقطبة الجبين، وقالت بحزم :

– لا يجمعني وامرأة أخرى سقف بيت واحد .

– لكنها أمي وليست ضرة لك!

– حتى لو كانت جدتك، فلا يؤمن الشر من واحده من بنات حواء!

وكيف أقابل الناس إذا لم أضم أمي العجوز إلى رعايتي؟

– يجب أن تهمك زوجتك – إن كنت صادقاً – ولا يهمك الناس .

– وماذا أقول لربي الذي قرن بين عبادتنا له وإحساننا للأبوين؟

– لماذا لا تتذكر ربنا إلا في هذا الجانب؟

– أنا أتذكره في كل الجوانب . . تأكدي . .

opeikandi.com

– إدعاء كان يقول مثل ذلك الشاعر الملعون..

أحس أن خطوط الاتصال بينه وبينها «جميلة.. بل ذات جماع بارع، ولكنها مغلقة على أفكارها، عدوانية، معاكسة... لا يعرف التفاهم إلى نفسها سبيلاً.. وهل أريد شيطانة في جسد ملاك؟ لا... امرأة عادية، رضية النفس، تتوق إلى التفاهم والحياة المطمئنة خير من هذه المرأة ذات الجماع البارع الذي يخفي خلفه مخالب وأنياباً، لا لن أتخلى عن أمي، ولن أتخلى عن تطبيق الإسلام حتى في اللباس» قرر أن يكون صريحاً حازما معها.. كانت مطرقة مكفهرة الوجه... رفع صوته ليسمعها حتى التفت الذين يجلسون قربهما:

– يبدو أنك عنيدة.. أنانية..

– انتفضت وقالت وهي تضع حقيبتها في كتفها:

– آه منكم جميعاً أيها الرجال تباً لكم جميعاً.. تصرون على أفكاركم وتتهمون المرأة.. ثم انتفضت واقفة، ومضت وهي تبربر بكلمات غير مفهومة.. تابعها بنظره. اصطدم كتفها في الباب وهي خارجة، وأشار بيده نحوها وقال بصوت مسموع كأنه يخرج من شق صخرة:

– إلى حيثُ ألقت..